

أما السيدة عائشة فقد لُزمت بيثها رصيفتها ، وأنا أطلع أنها جاهدت نفسها بهذه السكينة أعظم الجهاد ، وكتبها أعظم الكبت وكظمت غيظاً ما كانت لتكظمه . فا كان هذا الأمر بالأمر الحقيق ، إنه أعظم ما مر بالسيدة من خروج على الإسلام وتنكر لروحه ؛ ولكنها ذكرى يوم الجمل والدماء المهرقة فيه ، الدماء دائماً هي الشبح الذي يلوح لعائشة كلما همت بإنكار منكر فترعد فرائصها وتستجير بالله من كل خير يؤدي إلى شر .

لكن أعوان معاوية فاتهم اللطف في تأنيبهم لهذا الخرق لحرمة الخلافة ، ولم يدركوا ما فيه من كسر لحرية ألفها العرب وشورى يتعبدون بها ، ونظم سامية تجرى منهم مجرى الدم من العروق . ظن أعوان معاوية أن البيعة ليزيد أمر من هذه الأمور الكثيرة التي يرد بها البريد فتعلق للناس وتنفذ في سر وصمت ... مما لا يصدم عقيدة ولا يجافي روحاً ولا يكسر تقاليد أصيلة ولا يذل أنفة قومية .

أرسل معاوية أمره إلى الأمصار بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، فوقف عامله على المدينة مروان بن الحكم يبلن هذه البيعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إنكار الناس لها واحداً ، وكان متكلمهم عبد الرحمن بن أبي بكر أخو السيدة عائشة ، فقد رد على مروان قائلاً :

« كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ، لا يكون ذلك . لا تمدحوا علينا سنة الروم : » كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، « لقد جئتم بها هرقلية وقوقية^(١) ؛ تبايمون لأبنائكم ؟ » قال مروان : « سنة أبي بكر وعمر » .

عبد الرحمن : « بل سنة هرقل وقيصر » ، « ما لأبي بكر لم يستخلفني ؟ وما لمر لم يستخلف عبد الله ؟ » .

واشدد الغضب والحنق بمروان فقال :

— يا أيها الناس ، إن هذا الذي قال الله فيه : « والذي قال لوالديه : أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله : ويلك آمن ، إن وعد الله حق ، فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين »^(٢) .

حينئذ ، فرغ صبر عائشة وهي تسمع من حجرتها بالمسجد ،

(١) الدنانير القوقية من ضرب قيصر لأنه كان يسمى قوقا — القاموس المحيط

(٢) سورة الأحقاف ٤٦ الآية ١٧ .

معاوية بين يدي عائشة

للأستاذ سعيد الأفغاني

الشورى أساس من أساس الحكم في الإسلام ، فكما كان حظ الحكم منها أوفى كان أقرب إلى روح الإسلام . والحاكم الأعلى في العرف الإسلامي أجبر للناس كافة : يسهر على مصالحهم وبعض أحكام الشرع ويستوفى أجره من بيت مالهم وليس يملك من الأمر غير ذلك .

انفضى عهد الراشدين وفهم أجلاء الصحابة ورؤوس الناس للحكم هذا الفهم ؛ فلما اتفق أن ولي الخليفة عثمان رضى الله عنه بعض الأكتفاء من أقرائه أعمالاً ، أعظم الناس ذلك وخافوا أن تصير مصالحهم العامة حكرية لأحد أيا كان أو وفقاً على أسرة أية . كانت ، نقشت القالة في عثمان وكان هذا أول الشر الذي أودى بخلافته .

أما معاوية ، فإن أربعين عاماً سلخها في حكم الشام إلى جوار إمبراطورية الرومان وفي ديارها القديمة ، قد انحرفت به عن الجادة في أمر الحكم ، فلم يسلك به الطريق الإسلامي الذي رأينا أساليب مختلفة له في عهد الراشدين ، وإنما سلك به طريقاً (بيزانطياً) وأراد الخلافة أسلوباً ملكياً على أساس بيزنطة ، وانتوى لها نية فطفت يتألف لها الناس وسهيء لها الأمور ... فلما وجد الأحوال مؤانية أعلنها بيعة بولاية المهدي من بعده لابنه يزيد .

ولم يفعل ذلك معاوية حتى سير أغوار الأمصار وطباع الناس ؛ وكانت قد استلانت واستكانت مدة عشرين عاماً بسبب سياسته وسياسة ولاته الحازمين الأشداء . نعم لقد استكانت إلى الطاعة ، حتى من يجيش حمية من رؤوس الناس وأحرارهم ، ورض معاوية إياهم وأنفهم بلفظه وعطائه الجلم حتى أسلسوا القيادة ، أما من لم يسلس له فقد جملة جزر السيوف كما فعل في أمر حجر بن عدى وأصحابه . هذا وقد حصد الموت مدة أربعين سنة أكثر الصحابة وزعماء الجاهير ممن يهابهم معاوية .

مع كل ذلك ، لم يخجل إعلان البيعة ليزيد من صدمة للنفوس طامة ، فأكثرها وقف ثم رضى بالقدر اللهم ، وبعضها أنكر ورفع عقيرته بالإنكار .

ولا أهلاً» وسبّه فقال عبد الله : «إني لست بأهل لهذه المقالة»
قال معاوية : «بلى ، ولما هو شر منها» (١) .

معاوية في بيت عائشة :

دخل معاوية المدينة وكله خوف من السيدة عائشة أن تشتد
عليه فيما ابتدع وما يريد أن يتدع في أمر خلافة المسلمين مما يهون
معه كل ما كان الناس تقوموا على عثمان . ثم هو يخشى أن تكون
السيدة سنداً وملجأ وقوة لهؤلاء الأربعة أعلام الحجاز من صحابة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعاوية من الذين يتأتون للنشر
قبل وقوعه ، ولا تحملهم قوتهم عليه أن يكابروه حتى يقضوا
عليه ، توفيراً لقوام ورجلهم ، وسياسة لهؤلاء الخوصم عسى أن
يصبحوا في جملة أنصارهم فيزيدوا بهم قوتهم .

أراد معاوية أن يتلطف لما في قلب السيدة عليه ، فقد قتل
قائده - بأمره على ما أرجح - أخاها محمد بن أبي بكر بمصر شر
قتلة وأشدّها نكالا : حرمه قبل قتله شربة ماء وكان يتهاك ظماً
ثم أدرج جنته في جيفة حمار فأحرقها ، ولم ينج أخاها من القتل
والإحراق شفاعة عائشة ولا إرسالها في أمره رسولا خاصاً من
أشراف بني أمية ؛ وكذلك أرسلت تشفع أيضاً في حجر بن عدى
وأصحابه فلم تفد شفاعتها شيئاً . ولا ريب أن في نفس السيدة على
معاوية - لذلك - ما فيها ، ولكنها كظمت غيظها ورددت
حنقها . ثم كان من مروان مع أخيها عبد الرحمن في أمر البيعة
ليزيد ما رأيت آنفاً .

ومعاوية يخشى أن يفيض الإباء فيكون له من عائشة يوم
مثل يوم الدار أو يوم الجمل ، والحلمة عليه اليوم مواتية ناجحة
لاقحة : لهذا الحرق الذي أتاه في الإسلام بأخذ البيعة لابنه يزيد
مع أن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأولى الحل
والعقد من رجال العلم متوافرون يشهدون ويسمعون : قد تخفى
معاوية مشيختهم وأجلادهم إلى شاب مسهتر سكير سيء السيرة
رفيق الدين فيما زعموا .

لهذا كله ، عزم معاوية أن يروض أصعب الناس عليه يومئذ
وأشدّهم وأجدرهم إذا قال «هلم» أن يليه الناس من كل صوب
ويثوروا تحت لوائه . عزم قبل كل شيء على زيارة عائشة والتذلل
لها وموادتها ، « فأقبل وصمغ خلق كثير من أهل الشام حتى

وقد رأت أن عبث مروان تطاول إلى القرآن ، فنضبت وقالت
لن حولها : «الابن الصديق يقول هذا؟؟ استروني» فستروها
فجهرت ورددت جوانب المسجد صوتها قائلة :

— كذبت والله يا مروان ، ما هو به ، ولو شئت أن أسميه
لسميته ؛ إن ذلك رجل معروف نسبه ... ولكن (رسول) الله
لعم أباك وأنت في صلبه ، فأنت قضض (قطعة) من لعنة الله (١)
يا بن الزرقاء ، أعلينا نتأول القرآن؟! لولا أني أرى الناس كأنهم
يرتمشون لقلت قولاً يخرج من أقطارها .

وكان لهذه الصرخة أثرها في الجماهير فأنخذل مروان وانكسر
ولم يعرف أن يقول غير هذه الكلمة : «ما يومنا منك بواحد» (٢)
لقد كان جبهها مروان شديداً عفيفاً حاطماً ، وما باختيارها
جبهته ، ولكنه أخرجها . إن الذي بوسمها أن تفعله هو حياها
في أمر هذه البيعة غير المشروعة ، وحسبها ذلك قهراً لنفسها
وللواجب عليها ، وكذلك كان : فلم ترد على مروان شيئاً لما أعلن
بيعة يزيد ، لكن مروان امتد أذاه إلى أخيها بنير حق ، ثم امتد
إلى ما هو أشد حرمة من أخيها وما لا يجوز لمسلم أن يقر عبثاً فيه ،
لقد امتد عبث مروان إلى كتاب الله يدعى أن آية نزلت في
عبد الرحمن وهي لم تنزل فيه ...

لم يكن للسيدة ولا لغيرها أن تسكت على هذا النكر الذي
ارتكبه مروان نصرة لمصيبته السياسية .

وأي كان فقد امتنع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة ،
وامتنع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ،
وامتنع لامتناعهم أهل الحجاز .

كتب مروان بالذي كان إلى معاوية ، فأقبل نحو المدينة ،
فلما دنا منها استقبله أهلها وفيهم الأربعة المذكورون ، « فأقبل
على عبد الرحمن بن أبي بكر فسمه وقال : « لا مرحباً بك
ولا أهلاً » .

فلما دخل الحسين بن علي قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ،
بدنة يترقق دمه - والله - مهريقة » .

فلما دخل ابن الزبير قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ،
سب تلمة مدخل رأسه تحت ذنبه » .

فلما دخل عبد الله بن عمر قال معاوية : « لا مرحباً بك

(١) تاريخ ابن عسّكر (مخطوط) : ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر .

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركه عائشة على الصعابة من ١٤١ .

(١) أمال القائل ١٧٥/٣ .

قال : « فدمينا وإياهم حتى نلقى ربنا » (١) .
وهكذا انتهى اللقاء الأول بين الخليفة السامية العظيم وعائشة
أم المؤمنين ، وأصابه بمض ما يستحق من التصفيف على لسان السيدة
ثم خرج معاوية ومعه ذكوان مولى عائشة ، فانكأ على يد
ذكوان وهو يعيش ويقول :

« والله ما رأيت كالليوم خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله » ثم
مضى . ولا تظن وأنت تقرأ كلام معاوية أنك أن فيه حجة أو أن
السيدة اقتنعت ، فليس مما يقنع مثلها أن يقال لها في منكر تنكره
(هذا قضاء من قضاء الله) ، لكن عزيمة سبقت منها في اعتزال
السياسة والفن جعلها تمر بهذه الحججة الواهية متفائلة . ومعاوية
يعلم ذلك منها (٢) ، وكلا الاثنين يجامل صاحبه ويدافع شره .

تم كان لقاء آخر بمكة زور له معاوية جواباً فيه شبه الحججة
في قتل حجر وأصحابه .

والذي أذهب إليه أن السيدة لا تريد ظاهراً هذا التأييد ،
وإنما تلوح لمعاوية بقضايا قد تلجأ إلى التشنيع بها عليه إذا هو
حاول أن يحس أخاها عبد الرحمن وصحبه بأذى أو بطش ، ففهم كل
منهما من صاحبه .

وكان مكانتها رحمة الله قيّدت معاوية عن التصرف كما يريد
في أحكام الأمر لابنه في الحجاز فأتى وفي نفسه غصة من منزلة
عائشة بين المسلمين وتخوف لما قد يكون منها .

أما اجتناب السيدة الشدة في إنكار هذا النكر فيشرحه
أحسن شرح حالها في احتضارها :

ذكروا أنها لما احتضرت جزعت ، فقيل لها « أجزعين
يا أم المؤمنين وأنت زوجة رسول الله وأم المؤمنين وابنة أبي بكر
الصديق ؟ » . فقالت : « إن يوم الجمل مترص في حلقى ... ليتني
كنت نسياً منسياً » (٣) .
سفير الأوقاف

(١) الصدر السابق — ذكروا أن معاوية كان يهدد السيدة دائماً
بالطأ الجسام : قال عمرو : بنت معاوية إلى عائشة بنته ألف درهم ، فوالله
ما أمت حتى فرقتها ، فقالت لها مولاتها : « لو اشتريت لنا بدرهم لحاء »
فقال عائشة : « ألا قلت لي » : وبنت إليها معاوية بقلادة بنته ألف نفسها
بين أمهات المؤمنين . وقيل إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار — أظن
سير النبلاء للذمى ٢/٧١ والإجابة لإيراد ما استدركه عائشة على الصحابة ٧٢
(٢) وسلم من نفسه أنها — في البيعة يزيد — رعى فيها يخالف
الكتاب ، ولقد علل عنه قوله لابنه يزيد في احتضاره : « إن أعظم ما
أخاف الله فيه : ما كنت أمتع لك . » يعني من أمر البيعة له . — أظن
تصنيف ذلك في الطبرى ٤ / ٢٢٦ حوادث سنة ٦٥ هـ .
(٣) من كتابنا (عائشة والبيعة) الممد للطبع .

أنى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن ، فأذنت له وحده لم يدخل عليها
معه أحد ، وكان مندها مولاها ذكوان ، فلما استقر به المجلس
ابتدرته عائشة تقول :

« يا معاوية ، أكنت تأمن أن أمتد لك رجلاً فأقتلك كما
قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟ » .

كان التقرير عنيماً مفاجئاً كما ترى ، لكن داهية الأمويين
— على ما يظهر — كان يتوقع مثله ، فلم تصدمه المفاجأة ، بل
أجاب متملئاً متودداً :

— ما كنت لتفعلين ذلك .

— ولم ؟

— لأنى في بيت آمن : بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)
فطامن ذلك من عنفها . ثم إنها حمدت الله وأثنت عليه
وذكرت رسول الله وذكرت أبى بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء
بهما والاتباع لأثرهما ... ثم صممت . وكان على معاوية أن يجيب
على خطبتها هذه ، ولكنه لم يخاطب بخافة ألا يبلغ ما بلغت ،
فارتجى الحديث ارتجالاً في الأمر الذى قدم لأجله ، وتلطف في
تهوينه وتقريبه ، قال :

« أنت والله يا أم المؤمنين المائلة بالله وبرسوله . دللتنا
على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطاع أمرك
ويسمع قولك » ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للمباد
الخيرة من أمرهم . وقد أكد الناس بيمتهم في أعناقهم وأعطوا
عهودهم على ذلك وموآثيقهم ؛ أفترين أن ينقضوا عهودهم
وموآثيقهم ؟ » .

فلما سمعت عائشة ذلك علمت أنه سيمضى أمره فأوصته بهؤلاء
المخالفين : أخيا عبد الرحمن وأصحابه فقالت :

« أما ما ذكرت من عهود وموآثيق فاتق الله في هؤلاء
الرهط ولا تمجل فيهم ، فلملهم لا يضمنون إلا ما أحببت » .

ثم قام معاوية ، فلما قام ذكرت عائشة فملته الشنم في حجر
وصحبه ، فقرعته قائلة :

« يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه المابدين المجتهدين ؟ »
فقال معاوية صراوفاً : « دعى هذا ، كيف أنا في الذى بيني
وبينك ، في حوائجك ؟ » .

قالت : « صالح » .